روح من عالم آخر

إدراك عزديني/ تونس

كان المطر مدرارًا ليلتها ولا أذكر أنَّ أحدًا نجا من تلك الحادثة... غير أنَّ هذا الرجل الذي ألحظه منتصبًا غير بعيد عنِّي كان على متن ذاك القطار في تلك اللَّيلة...

إنَّه جاري... نعم، هو بعينه... كنت أراه يتجوَّل في حيينا النحيف بين الفينة والأخرى. وإذ حدث وتلاقت أعيننا نلقي التحية ثمَّ يذهب كلَّ منَّا إلى حال سبيله. وإن لم تخُني الذاكرة فقد لمحت جثَّته في ذاك اللَّيل الدامس ملقاة على أعشاب ،قد نالت من خضرتها شمسنا الحارقة، غير بعيدة من مكان الحادثة. وإن لا أزال بكافة قواي العقلية فقد شاهدت طيفه في التلفاز يوم أعلنوا عن ضحايا الحادثة وتناقل النَّاس خَبَرًا مفاده أنَّ جلَّ المسافرين على متن ذاك القطار في تلك اللَّيلة الممطرة قد غادرت أرواحهم عالمنا نحو المجهول. على ما أستحضره أيضا أنَّهم قالوا بأنَّ أسلاك القطار البالية التي ماطلت السلطات في تغييرها أو حتَّى معالجتها على مدى هذه السنوات قد كانت السبب.

وحدث ما تمَّ توقعه إذ لم تتحمَّل الأسلاك ليلتها هول وقصف المطر فانقطعت واحدة تلو الأخرى ليتدحرج القطار ذات اليمين وذات اليسار ثمَّ يلتوي كأفعى ليُعلن سقوطه فيما بعد من قمَّةِ الجبل حاملًا معه أضغاث المسافرين.

ولا يمكن أن يكون توأمه أو أخاه. فهو وحيد في هذه الدنيا البلقع. أَقْتَرِبُ أكثر... أُدَقِّقُ في ملامح وجهه فتفاصيل جسده. هو... هو بعينه، حتى تلك الشامة التي لطالما لمحتها على يده موجودة بحرفيتها. أدنو

منه وأضع يدي المرتجفة على كتفه. ألقي التحية عليه، يردُّ عليَّ بأحسن منها قبل أن ينظر إليَّ... يرفع رأسه مصوِّبًا نظره ناحيتي... يراني فتتغيَّر ملامحه فجأة... يصفرُّ فيخضرُّ فيحمرُّ فينهض من مكانه ومن ثمَّ يفر...

ما الأمر؟ لمَ فعل ذلك يا ترى؟ أأبدو كالشبح ربَّما؟. ها أنا أقترب من مرآة قد وُضعت بعناية في محل للملابس. نظرت إلى وجهي بل تمعنته جيِّدا إلى أن تأكَّدت من أنَّه لا يزال هو الذي عهدته... لم أتحوَّل إلى شيء آخر بعدُ... إذًا لمَ تغيرت ملامحه وهرب مذ حين؟ وإلى أين؟ عدت إلى منزلي الهزيل بعد أن مررت من أمام مسكنه الخاوي علَّني أعثر عليه هناك. فأسأل سرَّ هروبه منِّي. غير أنَّ عيناي لم ترَ أحدًا.

واصلت طريقي ودخلت منزلي إلاَّ أنَّني لم أذق رغيفًا من راحة البال فغادرت بيتي حاملًا كرسيَّ المتهرئ بيدي اليمنى بعد أن أبعدت تلك القطَّة التي ما فتئت تجلس فوقه وتزعجني بموائها تطالبني بإطعامها. وهل عثرت لنفسي على طعام يسكت صراخ بطني حتَّى أُوفر لها طعامًا هي الأخرى؟. واتخذت لي مكان خلف شجرة غير بعيدة من دار جاري. جلست مراقبًا إلى أن حلَّ المساء. غير أنَّه لم يأتِ.

تقلص نور الشمس رويدًا رويدًا إلى أن اختفى وحلَّ مكانه القمر فالنجوم. ها قد قدم أخيرًا... أسمع شقشقة مفاتيحه بين يديه. اقْتَرب من منزله وشرع في فتحه. فأغذَّت السير ناحيته. أمسكته من تلابيبه فاستدار مذعورًا. حدثته:

هدِّئْ من روعك... لمَ كل هذا الفزع؟ أردت فقط أن أسألك. قاطعني وخدشني بكلماته:

لمَ لحقت بي؟ دَعِنِي وشأني.

فأحكمت مسك تلابيبه وقلت:

ليس قبل أن تجيبني... كيف رأيت جثتك يومها؟ كيف تناقلتها القنوات صحبة باقي الجثث واليوم أراك أمامي؟ كيف. لزم الصمت برهة ثم طأطأ رأسه بعد أن أفصح ثغره عن ابتسامة لم ترق لي البتة وأمرني:

اتبعني إذًا.

تركت تلابيبه وتبعت خطاه... دخلنا منزله الذي ما انفك يَئِن من الفراغ. دخل حجرة كانت على يميننا فتتبَّعته بخطى ثقيلة... لا أخفي عنكم بأنَّ الفزع قد سيطر عليَّ حتَّى أنَّني ضغطت على صدري بيدي اليسرى بعد أن أحسست برغبته في الخروج لكثرة صخب دقاته. لزمت الصمت وتقدَّمت... أوقد نارا وأشار إليَّ بأن اجلس... جلست ويا ليتني ما فعلت.

«كانت هناك روح تعيش في هذا الجسد وكانت على متن ذاك القطار ليلتها... دُمِّرت كما دُمِّر باقي الركَّاب. وماتت الروح كما ماتت بقية الأرواح وظلَّ الجسد مرميًا هناك جثَّة بلا روح. فتقدَّمتُ نحوه ودخلت إليه لأعمِّر فيه بضع سنوات ونيّف وأرحل. في عالمنا نعيش بلا جسد... أرواحا فقط... مللت وأردت اكتشاف العوالم الأخرى فقادتني نفسي إلى عالمكم بعد رحلة دامت سنتَيْن... وصلت إلى عالمكم في ذلك اللّيل... وسمعت ضوضاء فتقدَّمتُ نحوها مكتشفًا... لاحظت عدَّة أجساد ملقاة على الأرض بلا روح فاخترت جسد ذاك الشاب. وقد وجدت هذه المفاتيح في جيبه الخلفي... وقادتني هذه الأرجل إلى هنا... وحدَّثني لسانه عنه كثيرًا... وأرتني عيناه بعض لحظات حياته. فلنقل أسعدها... كانت بضع لحظات يمكن عدُّها بهذه الأصابع الهزيلة... كما وجدت في قلبه جروحًا نازفة جرَّاء خيبات ألم وفقدان أمل... فأزحتها جانبًا وعالجت القلب ببلسم الكلمات... عثرت على قرح في معدته... وخواء في بطنه... يبدو أنَّه لا يأكل إلاَّ نادرًا. وواصلت عيشي هنا في جسده.

فكَّرتُ طويلا في العودة لعالمنا... لكن ليس لهذا الجسد القدرة على الطيران.... ولمَّا حاولت الخروج منه لم أقدر. هنالك طريقة واحدة... واحدة فقط... وهي إيذاء هذا الجسد وقتلته. حينها ستخرج روحي وأعود من حيث أتيت... لا أخفي عنك بأنَّني قد مللت منه ومن ترهلاته رغم صغر سنِّه... أو ربَّما أُؤذي جسدا آخر وأُخرج روحه لأسكن فيه وأغيِّر المكان. ما رأيكَ؟ .

عُقد لساني ثم تمتم بصعوبة:

أنصحك... أنصحك بالمكوث في هذا الجسد... عليَّ... عليَّ المغادرة الآن.

نهضت من مكاني. فقدِمَ نحوي وأَمسك يديَّ بقوَّة ثمَّ ضرب رأسي على الحائط عدَّة مرَّات. فما رأيتني إلاَّ أغادر جسدي بعد صراع طال بضع دقائق خُيلت إليَّ بأنَّها سنوات العمر كلُّها... لا يزال يضرب رأسي بعنف... ألا يكتفي؟.

ثمَّ رأيته وأنا أصعد إلى الأعلى يترك جسدي ينزف بعدما اطمأن على خروجي منه. وجعل يدُقُّ رأسه هو الآخر على نفس الحائط إلى أن خرجت روحه. همَّ بدخول جسدي... فرأيتني أتقدَّم نحوه وبسرعة لألكم روحه... لن أدعه يحظى بجسدي قطُّ. أمسكتُ بروحه الهاوية وحملتها معي إلى الأعلى لنترك كلا الجسدين داميين على الأرض قرب النافذة.